نور الدين الشهيد

أيها السادة : ان كنتم قد سلكتم الى هذه القاعة ، طريق العصرونية قادمين من هنا ، أو على قبر صلاح الدين آتين من هناك ، أو مررتم على مدرسة التجارة ، أو جزتم سوق الخياطين ، فاعلموا أن في هذه المسالك التي سلكتموها ، والدروب التي جزتموها ، لأحاديث خالدات من سيرة الرجل الخالد الذي أقبلتم هذه العشية لسماع حديث عنه ، نور الدين ونور الدين .

ففي دار الحديث في العصرونية ، في جدرانها القائمة التي تحدثت من أعاليها القرون الطوال ، وفي ماضيها الفخم الرائع ، وفي مدرسة التجارة ، تلك التي كانت فيما مضى البيمارستان النوري أعني المستشفى العظيم والمدرسة الطبية الكبرى التي أنشأها نور الدين يوم كان الغرب يتيه في أودية الظلام ، وعلى قبر صلاح الدين خليفة ابن زنكي ، وعلى ذلك الجدث المحفوف بالهيبة والجلال ، الماثل في سوق الخياطين الذي يحدث وهو صامت حديث النبل والمفداة والاصلاح والنصر المؤزر والبطولة النادرة والعبقرية والخلود ، في كل ذلك بإعادة محاضرات هي أبلغ وأجل مما أنا محاضركم به ، محاضرات كلما مرّ الزمان وتقادم العهد ازدادت عظماً وجلالاً لا يبلى جدّتها التكرار . ولا يذهب بهاءها كرّ الأعصار .

فيم أيها السادة تكون عظمة الرجال ؟ إن كانت في سموّ المواهب ونبل الخصال ، أو كانت في عظم الآثار وجلائل الأعمال ، أو كانت في فضائل النفس وقماسة الخلال ؟ فان نور الدين عظيم في مواهبه السامية ، وخصاله وآثاره الباقية وأعماله ، وفضائل نفسه وقماسة خلاله ، عظيمٌ في السلم وفي الحرب ، عظيمٌ في العلم وفي العمل ، عظيمٌ في تواضعه ورفعته ، هو من طراز قلّ أن حظيت بمثاله أمم الأرض ، هو أحد الخمسة الذين لم تملك مثلهم أمة غير المسلمين ، ولم يملك المسلمون مثلهم . أبو بكر ، وعمر ، وابن عبد العزيز . ونور الدين ، وصلاح الدين ، رضي الله عنهم أجمعين .

(١) ألقيت في دار الخيم الدمشقي النوري بدمشق

أصله — ولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة من أصل تركي ، وهو ابن زنكي آق سنقر ، وكان جده آق سنقر هذا ، مملوكاً تركيًّا لملكشاه السلجوقي ، أحد سلاطين الدولة السلجوقية العظام ، حظي بثقته فأصبح من أمرائه المقرَّبين لديه . ومن خواصه الآثيرين عنده ، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته وزاد قدره علوًّا الى أن صار يحافه ويثقه ، فولاه مدينة حلب وأعمالها وحماه ومنبج والملاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عنه ويأمنه . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بلقب قسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها . ولم يكن ابنه عماد الدين زنكي أبو نور الدين ، بأقلّ منه ذكاءً وعلو همةٍ وشجاعةً وطموحاً . ويكفيه فخراً انه مؤسس الدولة الأتابكية ومن الأمراء المشهورين بالحزم والاستقامة ، وكان ذا يد طولى في محاربة الصليبيين والثبات أمامهم ودحرهم في كثير من الميادين ، وقد اشتهر بصفات كريمة كالعدل بين الرعية والوفاء والرحمة والشفقة وبُعد النظر في سياسة الملك ووفرة الذكاء والهيبة وحب الخير والصدقات . هذا الى جانب همته وطموحه ومعرفته قدر الرجال وحبّه للاصلاح وشجاعته وإقدامه في الحروب وساحات الجهاد ، ولقد تسلَّم زمام الحكم والأمر فوضى ، وبلاد الشام نهبٌ مقسَّمٌ بين عدَّة من الأمراء يتحاربون ويتقاتلون لينال أحدهم من الآخر قطعة من الأرض يضمها الى ملكه الصغير ، بينما كان الصليبيون يفتكون بالناس . ويفتحون المدن الاسلامية ويدمرونها ويذيقون أهلها أنواع العسف والجور والبلاء والعذاب ، فاستطاع زنكي بعقله الكبير ودهائه وحسن تدبيره أن ينقلب من أمير صغير للوصول الى ملك يحكم قسماً كبيراً من سورية الشمالية ويتشيء جبهة منيعة أمام الصليبيين وأن يهاجمهم ويردهم عن كثير من المدن التي استولوا عليها ، ولولا همته وإخلاصه لكان من الممكن أن يجتاح الصليبيون سورية كلها ويثبتوا فيها وينتقلوا منها الى البلاد الاسلامية الأخرى . ولقد كان من حسن حظ الاسلام أن يخلف زنكيًّا ، بطل عظيم وملك كبير هو نور الدين الذي كانت سيرته وما تزال نبراساً يهتدي به المخلصون .

منشؤه — نشأ نور الدين في حجر أبيه وفي كنفه ، كما ينشأ أقرانه وأتراب أبناء الأمراء ، فتعلم القرآن الكريم وحفظه ، وأتقن قواعد العروبة والرمي ، وتلقى العلوم على مشهوري علماء عصره ، وقرأ تاريخ الأمم الاسلامية وسير أبطالها الخالدين ، وكان ذا ذكاء وافر ، وجلد على الدرس والتحصيل ، واعياً في معالي الأمور عازفاً عن وضيعها ومفاسدها ، وكان يحضر مجالس أبيه ويصغي الى ما يدور فيها من توجيه لسياسة الدولة ويدلي فيها بآراء صائبة يسر بها أبوه وتقر به عينه ، وكان أبوه ذا عناية خاصة به ، يطلعه على ما خفي عليه من أمور

الحكم ويبين له أقوم الطرق فيه ، ويدربه عليه ، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين وهو عاصر جمع أخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وجمع جنوده وركب من ساعته الى حلب فملكها واستقر فيها ، وفي سابع يوم من استقراره فيها بلغه أن بيموند صاحب انطاكيه خرج قاصداً حلب ، وأغار على ضواحيها وعاث فيها فساداً وكان الناس آمنين ، فقتل وسبى خلقاً عظيماً فأرسل اليه نور الدين جيشاً غلبه ودحره واستنقذ كثيراً من الأسرى . وهاجم بعض بلاد الصليبيين واستولى عليها ، ولا ريب أن دفاع نور الدين هذا ، في اليوم السابع من توليته ، دلنا على بعد همته ، وقوة عزيمته ، واخلاصه في رفع شأن مملكته وورد من تحدثه نفسه بالنيل منها .

ولقد قضى حياته كلها وهو في حروب دائمة مع الصليبيين ، كان النصر حليفاً له في أكثرها وأخافهم وطردهم من أكثر المدن الاسلامية التي استولوا عليها ، ولا يسمح لنا الوقت يا سادتي بذكر كل وقائعه ووصف بلائه الحسن فيها لأن ذلك يحتاج الى مجلدات ضخام ولكني ذاكر لكم بعضها لتعرفوا مقدار شجاعته وقوة نضاله .

أشهر وقائعه — من أشهر وقائعه وقعة « آنب » التي كانت في صفر عام ٥٤٤ إذ حشد فيها الصليبيون حشداً كبيراً ، فذهب اليهم نور الدين في ستة آلاف فارس وقابلهم قتال الأبطال وهزمهم وصرع أميرهم البرنس وهو أبو بيموند الذي سبق ذكره وكان مشهوراً بشدة البأس وقوة الحيل وكثرة السطوة وبغضه الشديد للمسلمين فقطع نور الدين رأسه وغنم غنائم عظيمة وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في هذه الوقعة على حداثة سنه ما تعجب منه الناس واستطاع نور الدين في واقعة أخرى أن يأسر جوسلين Joselyn الذي كان من شياطين الصليبيين وأبطالهم وأكثرهم عداوة للمسلمين ، وكان أسره من أعظم النعم على المسلمين ، وأصيب الصليبيون بفقده — كما يقول العماد الكاتب — وعظمت المصيبة عليهم به وخلت بلادهم من حاميها وحافظها .

ومن أعظم وقائعه افتتاح دمشق والاستيلاء عليها ، وقد استولى على حارم وبانياس بعد معارك عائلة أبلى فيها أحسن البلاء وافتتح حصون الفرنج الشمالية واحداً بعد واحد . ومن أعظم وقائعه فتح مصر أيضاً بعد حروب عداد . إذ أن جيوش الصليبيين هاجموا مصر وحاصروا القاهرة فدافع المصريون عنها دفاعاً عنيداً بعد أن رأوا ظلم الصليبيين وقتلهم الناس وسبيهم النساء . ثم صالحهم هلور صاحب مصر على مليون دينار خوفاً من نور الدين ، وكان خليفة مصر العاضد قد أرسل في هذه الأثناء الى نور الدين يستغيث به ويطلب منه النجدة وأرسل اليه في الكتب محور النساء وقال له هذه محور نسائي يستغثن

ك فأرسل اليه نور الدين جيشاً جراراً غلب الصليبيين وقتل عساكرهم واستولى على البلاد المصرية .

شجاعته — ولقد كان نور الدين في كل وقائعه وحروبه بطلاً مغواراً وفارساً مقداماً ، لا يعرف الجبن ولا الهلعة يقول عنه العماد الكاتب : كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ويقول عنه ابن كثير : كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة لم ير على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه . وقال نور الدين عن نفسه : إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم — أي بالاعداء — قلوا أو كثروا، ووالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري. وقال عن نفسه أيضاً : قد تعرّضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ، ولو كان فيّ خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها والأعمال بالنية . ولقد حدث في إحدى الوقائع أن تجمع الأعداء وزحفوا على المسلمين والتقى الجمعان فنشل بعض جنود الطليعة واندفعوا وتفرّقوا بعد الاجتماع وانقضوا عن نور الدين فبقي ثابتاً في الميدان مع عدد يسير من الشجعان وأطلقوا على العدو السهام فقتلوا منه عدداً كثيراً فولى الأعداء منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من جيش المسلمين ، ونجا نور الدين وعاد إلى مخيمه سالماً . ومما يدل على شجاعته وجرأته أن مخاضة في دجلة اعترضته في إحدى حروبه فاستسهل خوضها ، قال راوي القصة : سار أمامنا دليل ركابي وهو يقطع دجلة ونحن وراءه كخيط واحد لا نميل يميناً ولا يساراً حتى اجتزنا الماء برجالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا ، فاستعظم أهل تلك البلاد عملنا وما خطر ببالهم أنا نعبر بتلك مراكب فتكلموا في المصالحة .

ولقد كان نور الدين محبّاً للجهاد في سبيل الله والذود عن بيضة الاسلام وإنقاذ المسلمين من شر الحملات الصليبية المتدفقة كالسيل ، وقد نذر حياته للجهاد والدفاع عن الاسلام وبلاده . نزل مرة بحمص الخشب وأرسل الى أمير تلك البلدة يقول : اني ما قصدت بنزول هذا المكان طلباً لمحاربتكم وإنما دعاني الى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد الصليبيين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أموالكم . وصار مرة الى الموصل فأرسل له أميرها يقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك اليها . فأجاب الرسول قائلاً : قل لصاحبك أنك قد ملكت النصف من بلاد الاسلام وأهملت الثغور وبليت أنا وحدي بأهجم الناس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم

فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه إذ يجب عليّ القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين . وعاد من الموصل الى الشام بعد عشرين يوماً تسأل عن سبب إسراعه في العود فقال : يعنيني أنني هناك لا أكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد . وجرى في مجلسه مرة ذكر طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها فقال : إن حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها .

ايمانه الصادق — وكان يجاهد بعزيمة لا تعرف النصب ، وهمة لا تدري معنى الراحة وإيمان راسخ واعتقاد بالله متين ، وكان يستعين كثيراً بهذا الايمان في جهاده ويعدّه السبب الأول في النصر والغلبة . يروي عنه العماد الكاتب انه لما التقى الجمعان في موقعة حارم ، انفرد تحت التل وسجد لربه عزّ وجلّ ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يا رب ، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، إيش فضول محمود — اسم نور الدين — في الوسط ؟ وقال أيضاً : اللهمّ انصر دينك ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتى ينصر ؟ وقد نصر في تلك الموقعة نصراً مؤزراً بجيش صغير ، إذ أن جيشه كان في ذلك الوقت يواجه مصر .

وأصيب أخوه نصرة الدين مرة بسهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نورالدين قال له : لو كشف لك عن الاجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى . وقرىء عليه مرة جزء من حديث كانت له به رواية ، وذلك حين نزل الصليبيون على دمياط في مصر ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتمّ السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج . وقال له اصحابه مرة إنّ لك في بلادك إدرارات كثيرة وأوقافاً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والقرّاء والمتعبدين ، فلو استعنت بها لكان أمثل فغضب وقال : إني والله لأرجو بأولئك النصر ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه اليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

ورعه وعبادته وتحنثه — ويظهر إيمان نورالدين في كثرة تعبده وتحنثه ، فقد كان يصلي كثيراً من الليل ؛ وكان من عادته أنه كان ينزل إلى المسجد بتلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح. قال أبو الفتح الأشتري : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها يتم

شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . وقال عبد الله نوري — وهو أحد مماليكه — كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل ، وكان يرفع يديه إلى السماء ويتضرّع ويبكي ويقول : إرحم العثار المكاس . وكان متتبعاً للآثار النبوية حريصاً على فعل الخير ، وقام بإصلاحات دينية كثيرة منها انه منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومنع إدخالها الى ديار ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، كل الناس عنده فيه سواء ، ولم يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الدين وكان يقول في ذلك : نحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟ . وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والتنسّك وكثر أتباعه ، أظهر شيئاً من التشيع ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه وطاف به في البلد ونودي عليه : هذا هو جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق .

هيبته — ويروي المؤرخون انه لما أبطل حيّ على خير العمل في الأذان في حلب ، واستبدل بها حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، ومنع التظاهر بسب الصحابة ، عظم ذلك على الاسماعيلية وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذوة

حب الناس له — وقد أحبّ الناس نور الدين حبّاً عظيماً وتعلقوا به وانقادوا له حتى بلغ من حبهم له أن راحوا يفدونه بالأرواح : حدث مرّة أن الافرنج غافلوا المسلمين وهاجموهم من وراء الجسر ، فلم يطق المسلمون دفعهم فانهزموا ، ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر ، وقصدوا خيمة نور الدين فخرج مجلاً وركب فرساً وحده ، وكان في رجل الفرس شبحة ، فنزل رجل من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي ، ولولا تضحية الكردي بنفسه لقتل نور الدين . ولما عزم على فتح بانياس قدم دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر ، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين ، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير . وأصابه مرة مرض حادّ عام ٥٢ فقلقت النفوس وجزعت القلوب وتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال حتى هني فاطمأن الناس وفرحوا بشفائه فرحاً عظيماً .

ولما عزم نور الدين على فتح حارم أرسل كتباً إلى الامراء يطلب منهم الاشتراك معه في الجهاد فلما قرأ فخر الدين قرا أرسلان كتابه قال له خواصه على أي شيء عزمت ؟ قال على القعود ، فان نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي بنفسه والناس معه

في المهالك ، فلما كان من الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه : ما عهدنا مما بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها فقال إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي . فقد كان زهادها وعبّادها والمنقطعون عن الدنيا يذكرهم ما تلقى المسلمون من الفرنج ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه ومع قراءة كتب نور الدين ويكون ويلعنوني ويدعون عليّ فلا بدّ من إجابة دعوته .

وكيف لا يحبه الناس ويتعلّقون به ويفدونه بالنالي والنفيس وهو الذي أسس دولة وبنى ملكاً وشاد مجداً واستطاع بذكائه وإخلاصه أن يخلص البلاد الاسلامية من شر حملات كانت تتدفق على هذه الديار كالسيل الهادر ؟ وكيف لا يحبونه ويلقبونه بالملك العادل وهو الذي سار في الناس سيرة ذكرتهم بعهد العمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ونشر المساواة بينهم وأخذ للضعيف بحقه من القوي المعتدي ، وبذل قصاري جهده في سبيل الترفيه عن الرعية ونشر الأمن والرخاء والسعادة فيهم . لقد دعي بحق الملك العادل وإن سيرة عدله لتعد من أعظم سير الملوك وأروعها .

ورعه — وكان رحمه الله ورعاً ، فانه مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرّف فيما يخصه الاّ من ملك كان له ، قد اقتناه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين : أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعده الى غيره .

قال ابن الأثير : حكى لي من أثق به أنه دخل يوماً الى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه فقيل له إن القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده وإعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده الى الخزانة وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني إنه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً .

صدقاته وهباته — وكان كثير الهبات والصدقات ، يعطي عن يتوسم فيه الخير والحاجة . حكي عنه أنه حمل إليه من مصر هدية من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يلتفت اليها ، وبينما الحاضرون معه في حديثها إذ جاءه رجل زاهد فأمر له بها . فقيل له إنها لا تصلح لهذا الرجل

ولو أعطي غيرها كان أنفع له ، فقال : أعطوها له فاني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بثمانية دينار .

وحُسب ما تصدق به على الفقراء قبيل وفاته بأشهر قليلة فزاد على ثلاثين ألف دينار ، وكانت عادته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يمرضون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف اليهم صدقاتهم . وكان يصرف ما خصص له من المال في كل شهر في نفقاته وحوائجه ، وما زاد معه في آخر الشهر تصدّق به على الفقراء .

وحضر صبي وبكى عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف فسأل عن حاله فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف وليس له قدرة على الأجرة ، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة . فسأل الملك العادل : كم أجرة السنة ؟ فقالوا : مائة وخمسون وذكروا سيرته وطريقته وفقره ، فرقّ له وأنعم عليه وقال : نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه الى الأجرة ويقعد فيها . وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس ، فوصل الى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه .

عدله — قال ابن الأثير : لقد كان نور الدين يتحرّى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير . وان أخبار عدله وحوادثه كثيرة لا يمكن أن تحصى ، ولقد قرأت منها الشيء الكثير فامتلأت نفسي إكباراً له واعجاباً به . ويحسن أن أورد لكم حادثة منها . قال العماد الكاتب : كان نور الدين يلعب بالكرة ليروّض خيله ويمرّنها ، فرأى رجلاً يحدث آخر ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله فقال : لي مع الملك العادل محكومة ، وهذا غلام القاضي ، فألقى نور الدين الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضي وهو حينئذٍ كمال الدين الشهرزوري وأرسل الى القاضي يقول له : انني قد جئت محاكماً فاصلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . قال : اشهدوا أني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت أعلم انه لا حقّ له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أني قد ظلمته . فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له . وهذا كما يقول راوي القصة مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الزمان وتفرّق الكلمة . أجل إنه لمستكثر ، وهل سمحت في عصرنا هذا ، عصر المدنية والنور ، أن ملكاً أو أميراً أو وزيراً

وقف الى جانب خصم غير ذي مكانة أمام الحاكم أو القاضي.

ولقد قال نور الدين: اني أفكر في والٍ وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بدمك، ثم قال للعبدين الواقفين على رأسه: بالله عليكما لا تريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا أعلماني بها، وارفعاها إليّ، وإلا فخبزي عليكما حرام.

ولكثرة تحريه العدل بنى دار العدل بدمشق وعيّن لها موظفين ورسم لها ميزانية خاصة وصارت هذه الدار ملجأ للمظلومين من أقاصي البلاد، وكان يقعد فيها في الأسبوع الواحد أربعة أيام أو خمسة لكشف الظلامات والنظر في أمور الرعية، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً يرجعان الى خزانة، بل كان يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله. وكان يأمر بحضور العلماء والفقهاء الى جانبه ويأمر بازالة الحاجب والبواب ليصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني. قال أبو الفتح الاشتري الفقيه: كانت تحضر مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول الى خصمها ولا التكلم معه فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله.

ومن أعجب ما ورد عن عدله انه عدل بعد موته، وذلك أن رجلاً غريباً استوطن دمشق لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي نور الدين اعتدى بعض الجنود على هذا الرجل فدكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك؟ وقصد قبر نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك، فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند قبر نور الدين يبكي والناس معه وطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين: ما يبكيك؟ قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه.

ودخل عليه غلامه مرة وأبلغه أن القاضي يطلبه الى مجلس الحكم للحكم بينه وبين تاجر ادعى عليه شيئاً. فقال نور الدين يُحضر فرسي حتى ركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى الخادم وقال له: إمض إلى القاضي وسلّم عليه، وقل له إني جئت إلى هنا امتثالاً لأمر الشرع وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذا الازقة وفيها الأطيان، وهذا وكيلي يسمع الدعوى. وإن توجهت عليّ يميناً فمر إن شاء الله

تعالى ، فحضر الوكيل وسمع الدعوى وترجّحت اليمين فقال : القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر . فلما بلغ نورالدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر الخصم وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه .

ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها بعض الملوك على الظنّة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته ، وأمنت بلاده على نفسها وقلّ الشر والفساد .

ودخل حلب ، في عهد نورالدين ، تاجر موسر ، فمات بها وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً . فكتب أحد الناس إلى نورالدين يذكر له أنه قد مات هاهنا تاجر موسر وخلّف عشرين ألف دينار ، وله ولد عمره عشر سنين وحسّن له أن يرفع المال الى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضيه منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة فكتب نورالدين على رقعته : أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فنسّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله !

وكتب باسقاط المكوس والضرائب وقال والله ما أخذناها إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام ، يعتذر بذلك للناس عن أخذها ، ومنع ما كان يؤخذ من أهل دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وأذاع منشوراً طويلاً يبطل فيه جميع المظالم .

وخدم نورالدين الاوقاف الاسلامية خدمات جلّ قدرها ونظّمها وأشرف عليها ولم يدع درهماً واحداً يضيع منها ، وكانت الاوقاف في زمنه تبلغ آلاف دينار في كل شهر كلها ملك صحيح شرعي ، وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فانه كان لا يتصرف في شيء منه بل إذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، فهل وجدتم زاهداً أعظم من هذه الزاهدة ؟ أما المساجد والمدارس والبيمارستانات والقلاع التي شادها وبناها فأكثر من أن تحصى ، وإن دمشق اليوم لا تزال شاهدة على خدماته ناطقة بها ، ولا تزال المدارس والمساجد النورية قائمة في المدن السورية كحلب وحمص وحماة ومنبج لم تمسها يد الزمان بعد ، وقد كان البيمارستان ذا ماض زاهر وكثير الخير وقفه نور الدين على المسلمين كافة ، وان الخانات التي نراها مبثوثة بين المدن السورية كانت ملجأ لكثير من المنقطعين والمسافرين ، وان الربط والخانقاهات والمدارس والاوقاف المخصصة لها أشهر من أن تذكر ، وهو أول من بنى داراً للحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كبيرة ، وهي دار الحديث النورية التي لا تزال إلى اليوم قائمة في سوق الخضرونية وقد كانت أوسع مما هي عليه اليوم بكثير .

وكان يجمع العلماء والشيوخ عنده ويقرّبهم ويدنيهم ويتواضع لهم ، ويعظمهم ويوقرهم

ويطلب إليهم البحث والمناظرة ، فقصدوه من البلاد القاصية كخراسان وغيرها ، وكان أهل الدين معه في أعلى محل وأرفع مكانة ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عند سيدهم فيهم وإذا نقلوا عن إنسان شيئاً قال لهم ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من لا يذنب . ولقد كانت الشام خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرًّا للعلماء والفقهاء والصوفية ، ولم يكن أحد من الامراء يجلس عنده بلا إذن بل يقفون بين يديه حتى يأذن لهم ، فإذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام لهم وعلى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون . واذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول : هؤلاء جند الله . وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فاذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة والفضل

وكان نور الدين حنفي المذهب ، حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب الدينية والعلمية وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له ، وله أقوال وحكم منها ما ذكره أحد أتباعه المختصين به قال : كنت معه يوماً في الميدان والشمس في ظهورنا فكنا سرنا تقدمنا الظل ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا . فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت وراءي ؟ قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، نهرب ممن يطلبها ، ونطلب من يهرب منها .

هذا طرف من سيرة بطل الاسلام ، ولو رحت أعدد مناقبه وأخلاقه وأعماله العظيمة لأطلت ، ولقد صدق ابن الأثير إذ يقول : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا — فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريًا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل يظهره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف ببيت واحد ؟

وروى أبو الفتح الاشتري قال : بلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا القدس للزيارة حكاية عن الصليبيين وأنهم يقولون . ابن القسيم له مع الله سر ، فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما نظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فانه يصلي بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو ، فالله سبحانه ونعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا . قال . فهذا كلام الكفار في حقه .

رحمك الله يا نور الدين فلقد سطرت في سجل التاريخ الاسلامي صفحة ناصعة من صفحات البطولة والمجد ستبقى على توالي الاحقاب تراثاً يستضيء به المخلصون في مشارق الأرض ومغاربها .

(دمشق) راغب الطباخ